الادب المصري في القرن التاسع عشر

الكتابة والشعر

بدأ القرن التاسع عشر وسوق الادب كاسدة من جراء ما انتاب البلاد من حكم المماليك الذين لم يعنوا بشيء من العلم والادب والفنون سوى ما اقاموا من مبانٍ تخليداً لذكرهم وتضليلاً للعامة ليحملوهم على الظن بانهم ممن يساعدون على فعل الخير واقامة شعائر الدين . فلم يكن من غرضهم نشر الآداب الاّ بقدر ما كانت تدعوهم الحاجة اليهِ من الاختصاص ببعض الكتّاب والشعراء لنشر اغراضهم او لكتابة غيرهم من الامراء . ولم يكن للأدب معاهد يدرس فيها. ولكن مصر كانت محط الادباء الذين التجأوا اليها وموطن الازهر الذي كانت تنبعث منهُ اشعة العلوم العربية الى انحاء العالم الاسلامي — وكان الناس يرون في اللغة العربية وفنونها مفتاحاً لكل العلوم واساساً لتربية العقول . وزاد الناس حبّاً بطلب العلم في هذا المعهد ما حبسهُ اهل الخير على طلابهِ فلم ينقطع عنهُ الوافدون. ولاسيما ان كثيراً من علمائهِ وتلاميذهِ كانوا موضع الاجلال والاكرام من الحكام والامراء واصحاب الرأي وكان منهم القضاة واهل الشورى للسلاطين والامراء كما كان منهم الكتاب والمؤلفون في مختلف العلوم والفنون . فكان الاقبال على الازهر من اكبر الوسائل لاحياء اللغة العربية وآدابها فظهر منهُ الكتاب والشعراء وارباب الاقلام الذين تولوا وظائف الكتابة في الدواوين وغيرها

اما كتابة الدواوين زمن المماليك فكانت مزيجاً من العربية والتركية وخليطاً من الالفاظ العامية والعبارات الفجة . واستمرّ ذلك الى ايام محمد علي حيث نشأت العامية في المؤلفات والمراسلات وانحطت درجة الكتابة بطبيعة حال الدولة التي لم يعن اهلها بذلك . وتاريخ ابن اياس والجبرتي من اساليب الكتابة التي كانت فاشية في تلك الايام فكانت الكتابة في حالة انحطاط كما كانت الحال في جميع الاقطار العربية

وكان اكثر اساليب الكتابة البليغة الادبية كالرسائل والمقامات مسجعة جارية على اسلوب الهمذاني والحريري . وانتشر السجع حتى لم يكد يخلو منهُ كتاب او تأليف وحتى تمشى هذا الاسلوب في الكتابة العامية . ولا شك في ان هذا اثر عناية العصر العباسي الاخير بالصناعة اللفظية والمحسنات البديعية . وشاع هذا الاسلوب في الكتابة الادبية

حتى تخطى القرن التاسع عشر[1] فادرك رفاعة بك الطهطاوي (توفي سنة ١٨٧٣ ميلادية) وعبد الله باشا فكري (توفي سنة ١٨٨٩ ميلادية) وعبد الله نديم (توفي سنة ١٨٩٦ ميلادية) وابرهيم بك المويلحي (توفي سنة ١٩٠٦ ميلادية) والشيخ محمد عبده (توفي سنة ١٩٠٧ ميلادية) والسيد توفيق البكري وغيرهم من الكتاب المحدثين كمنشئ بك ناصف وامثاله. على ان ظلال هذا السجع الممل ابتدأت تتقلص منذ ان رجع طلاب

---

(١) وهاك نموذجاً من تعريب بعض تلاميذ مدرسة الالسن يدل على تمكن ملكة السجع من نفوس المتعلمين. نقل عن مجلة روضة المدارس:

يحكى ان فتياً فرنساوياً (اووكانو) كان بجواره طباخ ماهر في صنعته. فاتفق له يوماً من الايام وقد وضع كجري العادة ما طبخه ظاهر الدكان على الصواني. واظهر ما عنده من نفيس الاواني. واذا بكلب عظيم الجثة. متتابع اللهثة. عدا على اواني الطعم وخطف. والتهم من سائر المطعومات والتف. وكان ذلك الكلب بمحض الصدفة والتقدير. ملكاً لجناب ذلك الفتى النبيه. فسعى الطباخ في مخالبس اللحم منه فوجده قد عدت عليه من بطنه عوادي الايام. حيث كان الكلب قد اسرع بمجرد الخطف للالتقام والالتهام. وحين علم الطباخ انه لم يتحصل على ذلك. ولم يفرح بما طبخه الا بمن الكذالك. خرج من الغيظ عن طرق طبعه العادي. وعزم على السير الى صاحب ذلك الكلب العادي. فوصل الى بيته مصاحباً لندمه وسدمه. قائلاً من غاية الحزن والكآبة لبعض خدمه: ان مرادي ان اخاطر بحضرة سيدك الجليل المنير لاستفتيه في دعوى ما لمبتدأها خبر. فاستأذنه خادمه في استقبال الطباخ فدخل عليه فقال اهلاً باكرم جار. واعظم مستفت زار. فقعد الرجل وقد دارت بينهما راح الكلام. وتحدثوا في اجريات الازمان ووقائع الايام. فخاطبه الفقيه بالفراسة. ولزم لين الخطاب ومجانبة الحماسة. قائلاً له ايها المختار. اني اظن ان لك دعوى الجأتك الى الحضور عندي في هذا النهار. فافصح عنها ايها العزيز الحبيب. فاني باذن الله ازيل اشكالها بوجه لا يريب. فقال انما جئت متوسلك. لاستفتيك في مسألة ليس لها سواك قال وما هي؟ قال ان اتلف كلب شيئاً مملوكاً. سواء كان صاحبه امرءاً ام مملوكاً. هل يرجع في ذلك الى صاحب هذا الكلب. او يبوء صاحب هذا الشيء بهلاك السلب؟ فقال الفقيه ان كان الكلب ملك احد فهو الضامن لما اتلفه ضمان الوالد لولد. فعند ذلك نهض الطباخ على اقدامه. منوقاً الى الفقيه سهام كلامه. وقال ايها الفقيه الفيصل. قد حكمت على نفسك بنفسك فلا تتصل. ان كلبك هو الخصم صاحب الدعوى. وها انت الفقيه صاحب الفتوى. واذا كنت انت الحكم والخصم المهاب. فاحكم بيننا بالحق واهدنا الى طريق الصواب. فعند ذلك اخرج من كيسه نصف ليرة. واعطاها له واظهر انها يسيرة. الا انه عض انامله من الغيظ. وحمار جسمه في حرارة ولا حرارة الغيظ. وخرج الطباخ يطلب دكانه وهو في شديد الفرح. ظاناً ان بذلك زال عنه ما لاقاه من الترح. واذا بالفقيه يصيح عليه. وينادي باعلا صوته بالحضور اليه فارتعدت مفاصل الرجل من الخوف وانخلع قلبه من الجوف. فقال الفقيه ايها الرجل الكريم. لا يحل عليك ان تفتقي وفتة ثانية لم تكن من غير المسالم. التي اكتسبها من تحقيق الدعاوى وتنميق الفتاوي. وما رأيك اعطني معلوم فصل هذه القضية. التي اتصلت على صورة جميلة مرضية. فقال الرجل وكم ترضاً يدفع لاشكالها. فقال له ما جرت عادتي بأخذ اقل من ليرة في كل مسألة انك معتود عقالها فاخرج له الرجل نصف الليرة الاولى. وزاوجه نصف آخر حين علم ان الفقيه لا يتحول عن ذلك ولا يتناول فخرج يتمثر في اذياله ويتعجب من هذا الحكم الذي لم يخطر على باله

الارسالية التي ارسلها محمد علي الى اوربا في اواخر النصف الاول من القرن التاسع عشر فقد تأثروا باساليب اللغات الاجنبية فاخذوا يترجمون ويؤلفون كما فعل رفاعه بك الطهطاوي والعالم احمد فدا (المتوفى سنة ١٨٧٧ ميلادية) وابرهيم الفيومي الذي كان رئيساً لمدرسة الطب (توفى سنة ١٨٦٢ ميلادية) واحمد حسن الرشيدي الطبيب (توفى سنة ١٨٦٥ ميلادية) وغيرهم من العلماء والادباء

وكان من اشهر هؤلاء الكتاب والمؤلفين رفاعة بك الطهطاوي (سنة ١٨٠١ — ١٨٧٣ ميلادية) الذي كانت لهُ آثار عظيمة في الكتابة والادب والشعر فترجم في مختلف العلوم والفنون كتباً ورسائل . ويحسب اسلوبهُ من نماذج اساليب الكتابة المختلفة في القرن التاسع عشر بمصر . فان فيها السجع الممل المتكلف الممزوج بحسن اختيار الالفاظ وبلاغة العبارة (راجع « مقدمة وطنية » لحضرة رفاعة بك طبعت بمطبعة بولاق سنة ١٢٨٣ هجرية و« الكواكب النيرة في ليالي افراح العزيز المفرة » طبعت بمطبعة بولاق سنة ١٢٨٩ هجرية) ونجد في مؤلفاته السهل الممتنع الذي يشبه اجود اساليب الصحف اليومية عندنا الآن (راجع كتاب « مناهج الالباب المصرية في مباهج الآداب العصرية » طبع بمطبعة بولاق سنة ١٢٨٦ هجرية) . ومن الاساليب التي تحسب احياناً مسجعة واحياناً مرسلة اسلوب الوقائع المصرية منذ ظهورها (سنة ١٨٢٨) الى ما بعد منتصف القرن التاسع عشر . وبقي الادباء يحاكون الاساليب القديمة والموضوعات المعروفة كرسائل التعازي والتعارف قبل اللقاء والعتاب والشوق الى زمن قريب

ولكن محاكاة الاساليب الافرنجية وانتشار التعريب جعل اسلوب الكتابة العربية ينتقل من طور السجع ومحاكاة القدماء الى سهولة التعبير والايجاز في العبارة . ومن اشهر الصحف التي اذاعت هذا الاسلوب الجديد في الترجمة والتأليف مجلة روضة المدارس التي انشئت سنة ١٨٧٠ وكان يحررها نخبة من العلماء كاسماعيل باشا الفلكي و بدر بك الحكيم وعلي باشا مبارك ورفاعة بك وغيرهم . فقد نشر في هذه المجلة كثير من آثار اقلام الكتاب في موضوعات مختلفة من علوم وآداب . والمتأمل في هذه الاساليب يرى انهُ قد حدث في النثر اطوار كان الكتاب يجارون فيها روح العصر العلمية والادبية فرقت اساليب النثر وتعددت مناحيه حتى اصبحت تحتوي على كثير من الاساليب التي عرفت في اللغات الاجنبية . وزاد هذه الاساليب رقة وسهولة انتشار الصحف اليومية والمجلات العلمية . واخذت الرسائل شكلاً آخر غير ذلك الشكل المسجوع المعروف . ونزع الكتاب الى اسلوب آخر

غير متكلف وهجر كتاب الجرائد المقدمات التي كانوا يفتتحون بها موضوعاتهم واقتربوا من نفوس الخواص ولقد نراهم احياناً ينزلون باساليبهم الى عقول العامة مع صحة العبارة وسلاستها . كذلك نجد اثر الاساليب الفرنجية وتراكيب اللغات الاعجمية في الكتب المترجمة او المكتوبة حديثاً باقلام من تعلموا اللغات الاجنبية اوساووا الى محاكاتها . وربما توسعوا في ذلك حتى لقد يخرجون احياناً عن الاسلوب العربي المألوف . ولا يزال هذا الاسلوب الحديث يغمرنا بسيل جارف من الالفاظ الاعجمية والتعبيرات الافرنجية بما ينشره المعربون والمؤلفون وكتاب الصحف . على انهُ في جملته سهل قريب من اذهان الطبقة الوسطى من المتعلمين . ولا شك في ان هذا كلهُ دليل على ان الكتابة العربية في مصر سائرة في طريق آخر غير الطريقة العربية الصميمة

وقد حدث في مصر نوع آخر من النثر وهو النوع القصصي المصبوغ بصبغة مصرية كما في كتاب حديث عيسى بن هشام للمرحوم ابراهيم بك المويلحي . وهذا نوع جديد في الادب المصري اكثر اثراً وادعى الى الحياة في آدابنا الحديثة من اي نوع آخر من انواع النثر . وقد انتشرت اخيراً هذه الروح القصصية بين كتابنا المعاصرين لنا يجارون بذلك آداب الامم الاخرى . لان اكثرهم قرأ تلك الآداب وخبرها وتأثر بها . وما ينشر الآن بيننا منها كثير يبشر بنهضة ادبية عظيمة . على ان اكثرهم لا يزال في بادئ الصناعة يحتاج الى كد طويل وتفكير عميق وتجربة وتفنن في هذا الاسلوب الجديد حتى يقرب من الاتقان والكمال

هذا ما حدث في النثر الفصيح اما ما كان في النثر العامي او القريب من اللهجة العامية فان اثرهُ لا يقل عن ذلك في الادب المصري الحديث بل يكاد يكون اسبق من غيره لانهُ يمثل الحياة المصرية والاخلاق المصرية في جملتها . وقد انتشر هذا النوع في الثلث الاخير من القرن التاسع عشر وكان من مبتكريهِ المرحوم عبدالله نديم بروايتيهِ « الوطن » و« العرب » اللتين انتقد فيهما كثيراً من المسائل السياسية والاجتماعية والخلقية كما كتب مقالات متعددة من هذا النوع جمعت في كتاب سمي (سلافة النديم) كمقالة (مسهرة الانطاع او عربي تفرنج ومقالة مجلس وطني) وغيرها . وقد رأينا في السنة الثانية من مجلة روضة المدارس رواية تمثيلية كتبت باللغة العامية اسمها (الفتح المنصوب للحكيم المنصوب) . وهذا يدل على ان هذا النوع من الكتابة العامية ابتدأ ينتشر منذ ذلك . وهو على الرغم من بعده من العربية الفصحى قليلاً او كثيراً بحسب نوعهُ

من انواع الادب المصري الذي انتشر بيننا الآن بما تراهُ من القصص التمثيلية الهزلية المعروفة عندنا فانها تحتوي على كثير من نقد احوالنا الاجتماعية . ولا يزال الادب المصري في اول مرحلة من مراحله . وسنتكلم عن الشعر المصري الحديث في مقال آخر

احمد ضيف

جابر بن حيان

١ — ماهيته التاريخية

لعل أبا عبدالله او ابا موسى[1] جابر بن حيان بن عبدالله اشهر من يذكرهُ تاريخ العلم في العصر العربي من العلماء . فان اسمهُ يقترن من حيث الشهرة ومن حيث الاثر النافع باسماء العظماء من رواد الحضارة والعمران . ولقد قال فيهِ الاستاذ « برتيلو » المؤلف الفرنسوي ، وصاحب كتاب « تاريخ الكيمياء في القرون الوسطى » ان اسمهُ يحتل في تاريخ الكيمياء منزلة اسم ارسطوطاليس في تاريخ المنطق . فكانَ جابراً عند « برتيلو » اول من وضع لعلم الكيمياء قواعد علمية تقترن باسمهِ في تاريخ الدنيا

ولقد عُرف جابر بن حيان في العالم اللاتيني باسم « جيبر » Geber واشتهر بكتاب عرف في اللاتينية باسم Summa perfectionis — ويقول العلامة هوليارد بان هذا الكتاب مأخوذ عن كتاب جابر المسمى « الخالص » . على ان لجابر في العالم اللاتيني كثيراً من المؤلفات المنسوبة الى من يعرفونهُ باسم « جيبر » ، غير ان هذا الكتاب اشهرها واعمها بين الناس انتشاراً . على ان الفرق بين « جابر » و بين من يعرف في العالم اللاتيني باسم « جيبر » قد ذهب ببعض المؤلفين في العصور الاخيرة الى القول بانهما شخصان مختلفان . ولكن الاستاذ هوليارد قد اثبت ان جابر بن حيان هو بعينهِ المعروف في العالم اللاتيني باسم « جيبر » ، وان كل الكتب المنسوبة في اللاتينية الى الاسم الاخير هي تراجم او اقتباسات عن مؤلفات العالم الفارسي اصلاً ، العربي نسبةً

في القرن الثامن الميلادي (الثاني من الهجرة) عاش جابر بن حيان في بلاط الخليفة هرون الرشيد في بغداد . وكان على صلة حسنة بالبرامكة ، والظاهر من سيرتهِ انهُ

(١) يقول بعض المؤرخين ان اسمه ابو عبدالله وآخرون يقولون انه ابو موسى واذا صحت الروايتان دلتا على انه كان لجابر ولدان يدعى احدهما عبدالله والآخر موسى